متوقد منه الزمان

د. أحمد البراء الأميري

لما أسندت إلى معالي الأخ الكريم والصديق النبيل الحميم الأستاذ الدكتور محمد ابن أحمد الرشيد أعباء القيام بمسؤوليات التربية والتعليم، هاتفني – بعد شهور قلائل – وقال لي: يا أبا عمر، أنت تشكو من إحساس بالإحباط، لأنك – كما تقول – لا تؤدي رسالتكم في الحياة كما تتمنى! فها هي ذي الفرصة قد واتتك، تعال للعمل معي!

كنت أُدرس في كلية التربية بجامعة الملك سعود حينذاك، وكنت أعرف أبا أحمد وما يتحلى به من صفات، أشهرها – لمن يريد العمل معه – اثنتان: أنه يحترم زملاءه مهما كان مركزهم، وأنه يتعب في العمل ويتعب من معه، فلبيت دعوته مختاراً مسروراً، ولم أندم، فقد كانت السنوات التي قاربت العشر، التي قضيتها في مكتبه أغنى سنوات عمري بالعمل والخبرة والإنتاج، والحمد لله، وتعلمت فيها منه أشياء ما تعلمتها من سواه من الكبار الذين أكرمني الله بلقائهم وصحبتهم.

سأذكر في هذه الصفحات لمحات مما تسعف به الذاكرة من الأعمال التي أنجزت خلال تلك المدة وكنت طرفاً فيها، ومن المؤسف أن ذاكرتي لا تسعف إلا بأقل القليل:

أولاً: كتبت للوزير في ١٥ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ

«تبدو الحاجة ماسة إلى معجم مدرسي يلبي حاجات الطلاب اللغوية، وينمي مفرداتهم ويغنيها، ويكون لطيف الحجم، سهل المتناول يصطحبه معه الطالب إلى فصله كل يوم، ويقوم مدرسو اللغة العربية بتعليم الطلاب كيفية استخدامه، وتدريبهم عليه، وغرس حب البحث في نفوسهم».

فوجه بتشكيل لجنة لهذا الغرض، وبدأت عملها في ١٤٢٣/٣/١هـ ولا تزال ماضية

المستشار بمكتب وزير التربية والتعليم سابقاً.

فيـه، وسيكـون المعجم – بإذن الله – الأول من نوعه فـي تاريخ اللغة العربية، لأنه اعتمـد على الحاسـب الآلي في إعداد مدونتـه، التي وصل عـدد كلماتها إلى ثلاثة ملاييـن كلمة، حوالي ٢١ ألـف كلمة منها ستشـكل كلمات المرحلتيـن المتوسطة، والثانوية.

ثانيـاً: كنـت حريصاً على تعليـم الطلاب مهارات التفكير وتدريبهـم عليها منذ أن ابتدأت التدريـس بكليـة التربيـة فحاولت ولم أفلـح، فلما جئت إلـى الوزارة فكتبـت للوزير باقتراحي، فاقتنع بالفكرة، وأخرجها إلى حيز الوجود، وتحقق الأمل. فتكونت (لجنة التعليـم التفكير)، وصـدرت الطبعة الأولـى والثانية من كتاب (دليـل المعلم لتنمية مهـارات التفكير)، وطبعـت منه مئات الآلاف من النسخ، ووزعـت على المعلمين في الميدان، ورأينا بعض أزهاره وثماره.

ثالثاً: اقترحت أن يكون لكل فصل دراسي شعار تربوي يكون حديث المعلمين والطلاب في طوابير الصبـاح، والإذاعة المدرسية، وتخصص له – مثلاً – أول خمس دقائق من الحصـة الأولى يوماً في الأسبوع للتفكير فيـه، والحديث عنه، وإلقاء الضوء عليه من جوانـب مختلفة، ويكون واحداً من موضوعات التعبير، ويستكتب فيه الطلاب، وتحدد للفائزيـن منهم جوائز رمزية تشجيعية... إلخ، والقصـد منه برمجة الطلاب بشكل إيجابي على الأفكار الجيدة والعادات النافعة ومن أمثلة الشعارات التي طرحت:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، (المؤمـن مـرآة المؤمـن)، (إنَّمَا الصبر عنـد الصدمة الأولـى)، (الإخفاق يعلم النجـاح)، (الأفـكار بحاجة إلى الأعمـال).. وقد قام بتنفيذ هـذه الفكرة الدكتور محمد بن سليمان الرويشد مدير عام النشاط الطلابي آنذاك.

رابعـاً: من أصدقائـي المقربين الأخ الأستاذ محمد مرشد ديفـدز، مدير مركز التدريب فـي مدينة (جوها نسبرغ) بجنوب أفريقيـا، وتمتد صلتي به إلى عام ١٩٨٤م، ولما أفـرج عـن الزعيم الكبيـر نلسـون مانديلا، وخـرج من السجن، ثـم أصبح رئيساً

للجمهوريـة، تحركت في نفوسنا – مثل كثيرين غيرنا – رغبة صادقة في أن يعتنق هـذا الرجل العملاق الإسـلام.. وفكرنا تفكيراً عملياً فـي أن تحتضن المملكة هذا المسعى، وعرضت الأمر على الدكتور الذي أعطاه من الاهتمام ما يستحقه، ومهد لـه بالحكمة المناسبة مع خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز الـذي كان وليـاً للعهد آنـذاك، إذ الأمر على درجـة عالية مـن الحساسية والحرج السياسـي.. ولأمـر يريـده الله لـم يكتـب لمساعينا النجـاح، لكن رأيـت أن أذكر – للتاريخ – سعي الدكتور محمد الرشيد، وإخلاصه في هذا الأمر.

وقـد كتبت الرسالـة التالية التي كان مرجـواً لها أن تصـل مترجمة إلى يدي الرئيس نلسون مانديلا، لكنها لم تصل..

بسم الله الرحمن الرحيم

ماديبا[1] أيها الوالد العزيز، السيد الرئيس نلسون مانديلا الموقر

يا رجل القرن العشرين.. يا والد الأحرار في أفريقيا

يا أحد رموز النضال في العالم..

نحييك بتحية الإسلام الخالد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه..

- هذه رسالة من أبنائك: بضعةُ شبابٍ مسلمين من جنوب أفريقيا.
- دافعها الحب لك، والإعجاب بك، وتمني الخير الدائم لك، والنعيم المقيم.
- جرأنـا علـى كتابتها مباشرة وبصراحـة: أنك إنسان كبيـر، ومتواضع، وفي الوقت نفسـه أكبـر من المناصـب والألقاب.. كما جرأنـا أيضاً ما نعرفه عنـك، وما قرأناه فـي سيرتك، وما سمعناه منـك وشاهدناه: جرأتك في الحق، وقوتك في إعلانه على

(١) كلمة باللغة المحليّة تدل على الاحترام والمحبة يُخاطب بها نلسون مانديلا.

الناس، ولو خالفت أو أغضبت الدول الكبرى والقوى العظمى، لأن الحق أكبر من الجميع، ولأن الرجوع إلى الحق فضيلة لا يملكها إلا قلة نادرة من أقوياء الرجال.

- إننا – أيها الوالد العزيز – نؤمن بأن القرآن كلام الله، وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي سلم من التحريف على مر القرون. والقرآن يعلمنا أن نؤمن بجميع أنبياء الله، ونحبهم، ونحترمهم، ولا نفرق بينهم.

- ونؤمن أن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كلمة الله، وروح منه، وأن أمه صديقة طاهرة مطهرة، ومن لم يؤمن بهذا فهو خارج عن الإسلام.

- كما نؤمن أن الإسلام فيه حل لكل المشكلات التي تعاني منها الإنسانية اليوم، وشفاء لكل أمراضها، وهو في الوقت ذاته (لكل من عرفه حق المعرفة) الطريق الوحيد لسعادة الآخرة التي لا تنتهي:

- ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩ .

- ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥ .

- اسمح لنا – أيها الوالد العزيز – أن ندعوك للإيمان برسالة محمد ﷺ، كما آمنت، وآمنا معك، برسالة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

- اسمح لنا أن ندعوك لإعلان هذا الإيمان على العالم لتكون كبيراً في عين الله، كما أنت كبير في أعين الناس.

- واسمح لنا أن ندعوك لزيارة مكة المكرمة، والطواف حول الكعبة المعظمة، وبزيارة المسجد النبوي الشريف، والسلام على محمد ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين، لا لشعبٍ دون شعب، أو أمةٍ دون أمة.

- ونحن على شبه يقين من أن صديقك الكبير، الذي يحبك وتحبه الأمير عبدالله ابن

عبـد العزيـز، ولي العهد السعـودي، ومعه أكبـر الشخصيات في المملكـة سيكونون سعيدين باستقبالكم، ومرافقتكم في زيارة المدينتين المقدستين.

- وأن ملياراً ونصف مليار من المسلمين، سيسعدون، ويكسبون، ويفاخرون بانضمامك إليهم.
- وأن إعلانك سيكون من أهم أنباء القرن.
- وأن كثيـراً من أغنياء المسلميـن سيتبرعون لدعم المشاريع الإنسانية التي تتبناها وتعمل لها.
- ومتأكـدون – قبـل ذلـك وبعده – أنك ستكون الكاسـب الأول، إن شاء الله، فالذي ينحـا إلـى الحق هـو الـذي يكسـب، لا الحـق؟ لأن «الله غني عـن العالميـن»، وهو القائل: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦ .
- نسأل الله لك العمر المبارك، والصحة والعافية، والعطاء المستمر.

أبناؤك المخلصون

حررت في الرياض بتاريخ ٢٤ شوال ١٤٢٢هـ (٨ يناير ٢٠٠٢م)

خامسـاً: مـن صفـات أبي أحمد أنه لا يؤجل عمـل اليوم إلى الغد، بل إنـه إذا استطاع أن يقوم اليوم بعمل الغد وما بعده فلن يتردد في ذلك، متعباً نفسـه ومن معه!! وأذكر – مرة – أنني كنت معه في جدة، في المدة التي تنتقل فيها مكاتب الوزارات من الرياض إلى جدة صيفاً، وكنت أقيم معه في الـدور العلوي من المكاتب، فاشتغلنا حتـى الساعة الواحدة صباحاً، وبقي لدينا صفيحـات قليلة، فقلت له: هذه أنجزها غـداً صباحـاً إن شاء الله، فقال: أرجـوك لا بل الآن، فهي لن تأخـذ منك أكثر من نصـف ساعـة!! لقـد بحثت في معجـم أبي أحمد عن كلمـة «التسويف» فلـم أر لها وجوداً!!

سادساً: ومن الطريف أن أبا أحمد (يتحسس) من بعض الكلمات فيسارع إلى شطبها، وأغلبها من الأخطاء الشائعة مثل كلمة (فترة) ويستعمل عوضاً عنها (مدة)، وقد تذكرت هذا وأنا أكتب قبل بضعة أسطر أعلاه: «... في المدة التي تنتقل فيها مكاتب الوزارات من الرياض... » ومنها: زخم (فهي: رائحة اللحم المنتن)، وكفء (ويفضل عليها: كفيء)، ويعكس (ويفضل: يظهر) ولا يحب: نشاطات، بل يكتب: أوجه النشاط... وهكذا.

سابعاً: لابد لي أن أشير إلى أن من أهم المناسبات التي جمعتني للعمل عن كثب مع الدكتور محمد الرشيد أنني كنت معه عضواً في اللجنة الأهلية الإسلامية للإصلاح بين العراق وإيران إبان الحرب المشؤومة التي نشبت بينهما وأهلكت الحرث والنسل، والتي ظلت من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٨م.

ثامناً: عاصرت الحملة الظالمة التي تعرض لها الدكتور محمد الرشيد من بعض الناس، حتى دُعي عليه – سمعت أذني ورأت عيني – على منابر الجمعة وقنوت الوتر في رمضان!! تألمت كثيراً لما ناله من أذى، عزيت نفسي عنه، وعزيته بما ينال المخلصين والمصلحين على مدار التاريخ، وأن الله عالم بالسرائر والضمائر، وحساب العباد ليس للعباد إنما لرب العباد، وكنت أقول في غيابه لمن يثير هذه الافتراءات أمامي: أشهد – أمام الله – أن محمداً الرشيد – فيما رأيته أو سمعته واعتقدته فيه محب لله ورسوله، صادق الولاء للإسلام، وهذا يكفي لانهيار موقفكم، كنت أقول هذا الكلام واستشهد للحضور بالحديث النبوي الشريف، الذي رواه الإمام أحمد: «من ذبّ عن عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يقيه من النار».

تاسعاً: غني عن القول: إن أبا أحمد رجل غير منزّه عن الأخطاء، يعرفها في نفسه ويعترف بها، ويراها فيه المقربون من أصدقائه وزملائه، لكن من منا يزعم أنه منزه، ثم من منا يزعم أنه يشاركه فيما حباه الله من المزايا؟

يقول عباس محمود العقاد – رحمه الله – في مقال له بعنوان: «اعترافاتي»:

«... وحسبي اعترافاً أن أحداً من الناس لم يسلم من عيوبي وخطاياي، فهل في وسعهم جميعاً أن يدّعوا مساواتي في جميع فضائلي ومزاياي؟».

عاشراً: الدكتور محمد بن أحمد الرشيد واحد من صفوة تحظى بهم مجتمعاتهم، ليحملوا على عواتقهم أعباء النهوض بها للسير في دروب العلم والحضارة والتقدم، ويصدق فيه وفي أمثاله من البناة والرواد قول الشاعر:

متوقد منه الزمان وربّما ... كان الزمان بآخرين بليداً

ويجتمع فيه من السجايا والمزايا ما يتفرق في آحاد الناس سواه:

وتوجز في قارورة العطر روضة ... وتوجز في كأس الرحيق كروم

وبعد.. فالحديث عن أبي أحمد طويل، رَحْبُ الأبعاد واسع الامتداد، فسيح الآفاق بعيد الأعماق، وحسبك من أزاهير الروض طاقة[1] تحمل لك عبق الأطياب وسحر الألوان!.

(١) يقال: طاقة ريحان، وباقة بقل.